صفحة من حياة شيخ الحنابلة

٧/ ٥/ ١٤٣٦هـ

شـــيخنا الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل (ت:١٤٣٢هـ) المعروف بشـــيخ الحنابلة؛ عَلَمٌ ماجدٌ، وقامةٌ مشهورةٌ في الحركة العلمية والقضائية في بلادنا، بل وخارجها.

ولستُ في هذه الأسطر أُترجم له، أو أتحدث عن سيرته؛ فقد كَتب عنه مَنْ لازموه، واستفادوا منه كثيرًا[1]، أما العبد الفقير فقِراءته عليه جاءت في آخر سنتين من حياته رحمة الله عليه، لكنني قصدتُ منها أن تكون لفتةً إلى خصلةٍ عظيمةٍ تميّز بها، وصارت جزءًا من شخصيته، ومحلَ إجماع عند كل مَن عرَفه أو شامه العلم، أو جلس عنده بضعة مجالس، التي كان لها أثرٌ

(١) صدرت لشـــيخنا ترجمة ضافية ومطولة في أربع مجلدات، نشرتها دار الصميعي، واعتنى بها تلميذه الشيخ بلال الجزائري -أثابه الله-. وأكثر ما ينتقد على الترجمة خلوها من ذكر أســـماء من اســـتفادوا من علمه، وهذا نقصٌ بيّن في أحد أركان الترجمة المعتبرة عند أهل العلم، نرجو أن يستدرك مستقبلًا في الطبعة القادمة.
وقد أحســـن موقع الألوكة حين أنشأ صفحة لشيخنا على الشبكة، جمعت عددًا من كتبه وصوتياته:
http://www.alukah.net/web/alaqeel/10108/
وفي هذه الصفحة مقالات عدة تحدثت عن جوانب من شخصيته.

كبير في توافد الطلاب عليه من داخل المملكة وخارجها، لينهَلوا من عِلمه وعطائِه حتى آخر لحظة من لحظات بذلــه، إنها: التواضع غير المتكلَّف.

والتواضعُ يقع موقعه إذا صدر من الكبار -وشــيخنا منهم-، ولهذا التواضع مظاهر جلية، لا تخطئها عينُ الإنسان الذي يحضر بضعة مجالس، من أبرزها:

١. **التواضع العلمي**: المتمثل في اســتفادته من كل أحدٍ لديه فائدة، لا يتردد في الاحتفاء بهــا، والثناء عليها، ولو كان المفيدُ بها أحدُ طلابه بلْه أقرانه.

أذكر أن أحدهم أخبره عن طبعة مميزة لأحد الكتب، فقال: جزاك الله خيرًا، هذه فائدة منك، ثم ســأله عن الطبعة والمحقِّق وجودة التحقيق، وأين يباع؟ وأوصى باقتناء نسخة من الكتاب.

وكثيرًا ما ينصّ -عند الترجيح الفقهي- على اختيارات بعض أقرانه ومَن هم أصغر منه ســنًّا، ولا أحصي كم سمعته يذكر اختيارات شيخنا العلامة ابن عثيمين في المسائل الفقهية، مع أن شيخنا العثيمين من حيث السنّ أصغر من شيخنا ابن عقيل باثنتي عشرة سنة! وإذا أردتَ المزيد من هذه النماذج فاقرأ رسالته: (تحفة القافلة في حكم الصلاة على الراحلة).

٢. **التواضع الشخصي**: وهذا ظاهرٌ جليٌّ في حفاوته بمن يزوره من أهل العلم، سواءٌ كانوا علماء أو طلاب علم، وجُلُّ من يزوره أصغر منه ســنًّا، ومع هذا يُظهر لهم من الاحترام والتقدير شــيئًا لافتًا للنظر، وله في هذا مواقف كثيرة، منها -وهو شيء شــاهدته، أو ســمعته،

وما خفي عليّ أكثر-: حرصه على زيارة شـــيخنا العثيمين في مخيمه في الحجّ.

ومرةً قدّم له تلميذُه وصديقنا أ. د. عبد المحســـن العسكر في محاضرة (ابن ســـعدي كما عرفته)، وقبل أن يبدأ شيخُنا ابن عقيل بالمحاضرة علّق قائـــلًا بكلام معناه: إن قول د. عبدالمحســـن: إنه اســـتفاد منّا كثيرًا، فأنا أقول: إن ما أستفيده منه أكثر مما يستفيده مني! أو كلامًا هذا معناه.

وإذا قَدِمَ عليه طالبُ علم كبيرٍ في مجلســـه، أثنى عليه، وعلى ما له من مؤلفات، وحثَّ على الاستفادة منها، وقع هذا أكثر من مرّة.

ومواقف الشيخ في هذا يصعب حصرُها، والأهمُ من ذلك هو ما أثَر تتبع مثل هذه الخصلة علينا معاشر طلاب العلم في حياتنا العامة؟

لا ريب أن القدوة المطْلقة في كل خُلق نبيل هو رســـولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن مِن فضل الله تعالى أن يجعل للناس أئمة يُقتدى بهم في الخير -علمًا وعملًا-، يرون فيهم نماذج ربانية يُحيي بها اللهُ ما اندرس من رِمم مكارم الأخلاق.

والنـــاسُ يحتاجون إلى طالـــب العلم المتواضع، الـــذي يكسر بعضَ الحواجز المصطنعـــة، التي ربّما تشرّبها بعضُ الطلاب خطًا -شـــعر أم لم يشـــعر- من بعض الكتب المصنَّفة في (آداب طالب العلم)، التي تحدثت عـــن صيانة العلم، ففهم بعضُهم ذلك على غـــير وجهه، فأوجد حواجز وهمية، جعلته في مكان قـــصيّ، وقلّلت من إفادة الناس من علمه وقرب الناس منه.

ومن اشـــتبه عليه شيءٌ من ذلـــك، أو غلب عليه مـــا يوافق طبعه مما يقرؤه في كتب التراجـــم؛ فليقرأ هذا الحديث الذي ذكره أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مَقدَم ضمام بن ثعلبة، فقد ســـأل حين دخـــل: أيكم محمد؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئ بين ظهرانيهـــم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ![1] الله أكبر! لم يستطع ضمام أن يميز النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سأل عنه!

وبعـــد ذلك دعْ عنك يا طالب العلم- كل النماذج التي تبالغ في حفظ وقار العلم، حتى عزلت العالِمَ عن عالَمِهِ!

وما ســـبق لا يُفهم منه -بالتأكيد- ابتذال العلم، ولا إســـقاط هيبته ووقـــاره، بل هو دعوة لخلع بعـــض الأردية والحواجـــز الموهومة، التي حالـــت بين أهل العلـــم وبين طلابـــه، والله الموفق لأحســـن الأخلاق والأقوال والأفعال، لا يهدي لذلك إلا هو.

(١) رواه البخاري (رقم٦٣).